الفصل السادس

الترقى الاجتماعى

طبيعة الاستجابات الاجتماعية :

لم يكن فى استطاعة إنسان فجر التاريخ أن يعيش بمفرده فظروف الحياة تستدعى تآزراً وتعاوناً بين الأفراد ، ففى الاجتماع قوة ومصلحة وفائدة . وقد تعاون الأفراد بعضهم مع بعض لصد عوادى الطبيعة وللحصول على الغذاء والكساء ، وأحسوا بالراحة تسرى فى أوصالهم وبالطمأنينة تحوطهم .

والطفل الوليد ، ضعيف ، بل هو أضعف الكائنات الحية ، ولا يمكنه أن يعيش دون مساعدة خارجية تمهد له سبيل الحياة وتيسر له العيش ، هو محتاج إلى الغذاء يملأ به معدته ، وأنى له الغذاء وهو الغريب الضعيف الذى لا يستطيع التحرك من مكانه قيد أنملة ، وهو محتاج كذلك إلى الكساء وإلى الرعاية والعناية ، فهو مخلوق يعتمد كل الإعتماد على غيره . حتى إذا ما تقدم فى السن قليلا وتخطى مرحلة الرضاعة وتذوق ثمرات الطبيعة الشهية ، أمكنه أن يمسك الملعقة بين أصابعه ويملأها من الغذاء اللذيذ ثم يرفعها إلى فمه حيث يصب الطعام ويزدرده ، وهو يقوم بهـــذا العمل بمفرده دون مساعدة خارجية ، ولكن استقلاله هنا ليس كاملا ، فهو لا يستطيع أن

يجهز هذا الطعام أو أن يحصل على مواده ، لأنه مازال يعتمد على الغير . وسيظل معتمدا عليهم إلى أن يكسب عيشه بنفسه ويشترى طعامه . وهو هنا أيضا ليس مستقلا تمام الإستقلال بل يعتمد على غيره ، يعتمد على من يزرع ويحصد ومن يهيء ويجهز ، وهكذا يعيش الإنسان فى بيئة تحتم عليه الاجتماع والتعاون والتعاضد .

وعلى الطفل فى بيئته واجبات يتحتم عليه أن يؤديها وأمامه حواجز لايصح له تخطيها ، فعليه ألا يتدخل فى شئون الغير وألا يمس حريتهم أو ممتلكاتهم وعليه أن يطيع القوانين والعرف حتى يظل الانسجام بين أفراد المجتمع موجوداً وحتى لا يشذ فيلفظه هذا المجتمع . عليه أن يتعاون مع الغير وأن يساعدهم وألا يقف مكتوف الأيدى يتركهم يعملون ويكدون ويقتطف هو الثمار . بل عليه أن يشترك اشتراكا فعليا ليبنى صرح هنائه وراحته ، علية أن يمد يده عارضاً خدماته ، ويضحى إن استدعى الأمر ، يضحى بنفسه أو بماله أو بقوته ليسعد غيره . وقد يجد الطفل فى المجتمع قوانين يظنها جائرة ظالمة ، ولو أمعن الفكر قليلا وسبر أغوارها ووصل إلى أصولها لتغير اعتقاده وبانت له الحكمة من ورائها . وقد يرى فى نظام المدرسة حداً من الحرية وسبب هذا مرجعه إلى عقلة القاصر الذى لم يدرك بعد قيمة تلك النظم والقوانين .

وقد يصدم الطفل عندما يجابه المجتمع وفيه القوانين الكثيرة

التى يجب أن يخضع لها . وأن يحترمها ، وهذه القوانين يجب أن تنفذ وأن تطاع ولن يجد أمامه شفيعا يشفع له إذا ما هفا أو أخطأ ، لن يجد معامله كتلك التى عهدها فى منزله ، لن يجد الأم الرءوم التى تعطف عليه وتحميه إذا ما أتى فعلة منكرة وصمم والده على عقابه ، لن يجد ذلك التسامح والتغاضى كالذى عهده فى معاملته مع إخوته وأقاربه . لن يجد شيئا من هذا بل سيجد سيف العدالة مسلطا لا يعرف تهاونا ولا تغاضيا .

ولذلك خلقت المدرسة كى يمر الطفل فيها بعد أن يخرج من المنزل وقبل أن يصل إلى المجتمع ، طريق وسط بين بيئتين ، بيئة الرأفة والشفقة والحنان ، وبيئة القانون والنظام ، ففى المدرسة قوانين ونظم يجب أن تطبق ، وإلى جانب ذلك هنالك الرأفة والشفقة والحنان ، فالمدرس بديل الأب والمدرّسة بديلة الأم ، فإذا مامر فى هذا الطريق أمكنه أن يصل سالماً إلى المجتمع ، فاذا وجد فيه القوانين كثيرة ، فلن يصدم لأنه اعتاد بعضها أيام أن كان يلج أبواب المدرسة .

والطفولة مدة التمرين وتحصيل المعلومات والخبرة ، والطفل يستغل هذه المدة أيما استغلال ، ولا يجب أن نقلل من شأن تفكيره فهو إلى حد ماراق وله آفاقه وأهدافه ، ويمكنه تفكيره من دراسة الغير وقد يحكم على سلوكهم بالخير أو الشر ، بالذم أو المدح ، ولا نعجب إذا وجدنا تلميذاً فى مدرسة ابتدائية يصف مدرسه بأنه

كان معتل المزاج اليوم . وقد يسرد سببا لذلك ولا نعجب إذا رأينا طفلة تنقد ملابس سيدة كبيرة وقد تصف العلاج اللازم . فالطفل يجب عليه أن يفهم الناس ويعرفهم ويعرف كيف يعاملهم حتى يمكنه أن يسود المواقف الاجتماعية .

وكلما نما الطفل كلما ازدادت معرفته بالبيئة التى يعيش فيها وكلما أمكنه أن يكيف نفسه تبعا لها وينسجم فيها ، فسيتعلم أنه من الأوفق له أن يتحاشى الاصطدام بشخص ثائر مغضب ، وسيرى أنه يستطيع أن يحصل على كثير من مطالبه إذا كان الشخص الذى أمامه معتدل المزاج ، وسيجد الطفل أن معاكسة القطة خطر ، فقد تهجم عليه وتخدشه ، وسينجح فى الوصول إلى المدرسة فى الميعاد بعد أن يقدر بالتقريب الوقت اللازم ليقطع فيه المسافة من منزله إلى المدرسة .

على أن الطفل قد يظلم فى بعض الظروف ويقع عليه اللوم والعتاب ، وهو برىء ولكنه يتقبل اللوم لأنه لا يستطيع إلا ذلك . فقد يقوم الطفل بحركة غير مقصودة فى الفصل ، ولا يتحمل المدرس صدور هذه الحركة لأسباب خاصة فى نفسه وظروف سيئة كانت تحيط به عندما أصدر الطفل هذه الحركة . فيلوم المدرس الطفل المسكين ويعنفه وقد يخرجه من الفصل فى حين أن ما قام به الطفل طفيف لا يستدعى شيئاً من كل ذلك ، لكنه لا يستطيع أن يعارض فالسلطة فى يد المدرس . وعلى الطفل أن يتقبل ما يصفه

به المدرس وهو صاغر . ثم يلوم الطفل نفسه بل وقد يحتقر نفسه ؛ وهذا أسوأ ما فى الأمر .

لو أمكن للطفل أن يعرف الموقف الانفعالى لشخص آخر لاستطاع أن يتحكم فى سلوكه وأن يتنبأ بسلوكه ويؤثر فيه ، وبالتالى فإن ملاحظته تتجه اتجاهاً طبيعياً لا إلى ما يفعله أو يقوله بل إلى طريقته فى الكلام وفى العمل ، فالطفل يستشف من خلال سلوكه الظاهرى ما يعتمل فى نفسه وما يحس به ، وقد لاينجح الطفل فى ذلك كثيراً ودائماً لأن هنالك أشخاصاً يظهرون غير ما يبطنون ولاتترجم قسمات وجوههم حقيقة مشاعرهم . فقد يبتسم المغضب الحانق بدل أن يكشر عن أنيـــابه ، وبالتجربة والتمرين يمكن للطفل أن يميز بين الابتسامة القلبية البيضاء وبين الابتسامة الباهتة السطحية الصفراء[1] .

وقد يلوح لنا أن هذا كثير على الطفل وفوق طاقته ، لكن لا ننسى أن عنده المواد الأولية لذلك وأنه يمارس هذه العمليات منذ حداثته ، وكلنا يرى أطفالا صغاراً يأتون عملا من الأعمال ثم ينظرون إلى وجوه آبائهم وأمهاتهم يستشفون صدى العمل عندهم ، هم يريدون أن يعرفوا هل قوبل عملهم بالسخط أوالرضا ، وقد تكفى إيماءة من الأب أو إشارة من الأم ، أو من أى شخص

---

(1) Morgan : Child Psychology. pp. 396.

كبير لتبين للأطفال خطوتهم المقبلة فإما الاستمرار فى العمل أو الكف عنه .

ويحس الطفل بمركزه وسط عائلته ، يعرف إن كان محبوبا أو مكروها : يعرف ذلك بموقف الكبار نحوه ونحو أعماله ، حتى إذا ما هفا فيعاقب بعقاب طفيف ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة وإذا ما أحسن شكر وامتدح ، أما إذا كان مكروها ، لسبب ما ، فلن يجد إلا الصد والعنف ، وعين السخط تبدى المساوىء ، فإن أحسن لم ترعيونهم إلا السيء القبيح ، والطفل المسكين حائر مظلوم يعمل لرضائهم وهم عنه لاهون دستورهم القسوة وشعارهم العنف وقانونهم الكره . وما ذنب المسكين فهل هو الذى أدى بهم إلى الإملاق وهل جاء ذكرا بعدعدة ذكور ، وكان المفروض فى عرفهم أن يكون أنثى . . . قليل من التعقل والحكمة والعدل ننشىء به جيلا متكامل الشخصية لا منحلها .

السلوك الاجتماعى عند الطفل :

وضحت أن الطفل الرضيع يظهر علامات الرضا إذا ما لاح أمامه شخص يحبه ويرعاه ، بل كثيراً ما يكون مجرد سماع صوت ذلك الشخص كافياً لشعور الرضيع بالارتياح والطمأنينة ، ويعبر الطفل عن ارتياحه وسروره بالابتسام أو الضحك أو الإقبال أو

المناغاة . ويتعلم الطفل هذا السلوك بطريقة الفعل المنعكس الشرطى (وقد سبق أن أشرت إليها) . ويتوقف ظهور السلوك الاجتماعى عند الأطفال على مدى نمو قدراتهم على الإدراك والتمييز وعلى مدى الخبرات التى مروا بها .

ويمكننا أن نصف الترقى الاجتماعى عند الأطفال نظراً لأن قدرتهم على تمييز البيئة التى يعيشون فيها تكاد تكون واحدة ، وقد وجد أن هنالك سلوكا إجتماعياً فى الشهر الأول من حياة الطفل ، فالرضيع قد يكف عن البكاء والصياح عند ظهور شخص أمامه أو حتى مجرد سماع صوت شخص . ويجب علينا أن نأخذ هذا الرأى باحتراس شديد فمن الملاحظ أن الرضيع الذى يبكى قد يكف عن البكاء إذا سمع صوت ارتطام شىء بالأرض أو نباح كلب أو مواء قطة أو حتى إذا تحرك هو صدفة من مكانه قليلا فأزال بذلك سبب البكاء وهو عدم الراحة فى رقدته ؛ وبذلك نعتبر ظهور شخص أمام الطفل وكفه عن الصياح ، لا سلوكا اجتماعياً ولكن عملا آلياً جذب انتباه الطفل وحوله من حالة إلى حالة ، والشخص الآدمى هنا يساوى فى الأثر سقوط كرسى أو نباح الكلب .

أما فى منتصف الشهر الثانى فإن الاستجابات الاجتماعية تكون أكثر ظهوراً وتميزاً ، فالرضيع يبتسم إذا ما اكتحلت عيناه برؤية

شخص معهود محبوب[١] . وبعد اكتمال الشهرين يدير الرضيع رأسه وعينيه نحو مصدر الصوت البشرى الذى طرق أذنيه . وهذه الاستجابات تنمو لا لأن هناك ميلا اجتماعياً باطنياً عند الطفل فقط بل لأنها تعلم ويستمدها الطفل من بيئته[٢] .

ومن الصعب على الرضيع أن يميز التعبيرات الوجهية واللفظية التى يظهرها الكبير ، بل هو يبتسم فى معظم الأحـــوال ، فإذا ما أمسكت برضيع بين يدى وثنيت مرفقه وأنا أبتسم لا بتسم هو كذلك ، فإذا كررت العملية وأبدلت الابتسام بتقطيب الوجه وعبوسه لظل هو مبتسما كذلك . وبعد أن يبلغ الرضيع الشهر الرابع يمكنه أن يميز قليلا بعض التعبيرات التى يظهرها الشخص على وجهه ، ويكون قد حصل على تجارب وخبرات نمت إنتباهه وقوة ملاحظته . بل ويستطيع بعد الشهر الخامس أن يميز فى نبرات ولهجة المتكلم ، وهو لذلك يستطيع أن يتنبأ ، إلى حد ما ، بسلوك الكبير فإذا ماسمعه يتكلم بصوت مرتفع وبعنف توقع شرا أما إذا كانت لهجته ناعمة لطيفة هادئة فينتظر خيراً .

وثمة ألواناً أخرى من السلوك الاجتماعى يظهرها الطفل فى فى سنته الأولى ، ففى الشهر الرابع مثلا نجده يمد ذراعيه ويمط جسمه

---

(١) Buhler : The First Year of Life.

(٢) Gesell : Mental Growth of Pre-School Child.

ويلق بنفسه نحو شخص يحبه ويريد أن يحمله . ويستطيع الرضيع هنا أن يتذكر بعض الحوادث التى مرت به وبعض الأشخاص الذين رآهم . ويميل جدا إلى أن يلعب مع شخص كبير ويستغرق فى الضحك عند مايخفى هذا وجهه لحظات ثم يظهره مرة أخرى . والطفل يهتم بالكبير أكثر من اهتمامه بمن فى مثل سنه ولعل مرجع ذلك إلى أن الكبير يظهر مصحوباً بمؤثر ومهيج ومنبه أقوى من ذلك الذى يصاحب الطفل الصغير ، وإذا وضع طفلان على أريكة واحدة أو على فراش واحد فإن أكبرهما سناً سيتنبه أولا ويبدأ بمشاغلة الطفل الآخر الأقل منه سناً ، وفى معظم الأحوال سيخيم الإبتسام عليهما .

السلوك الإجتماعى فى المرحلة قبل الدراسية :

نستنتج من الحقائق التى أوردتها سالفاً أن السلوك الاجتماعى يظهر ويكثر كلما تقدم الطفل فى السن فهو فى السنة الثانية أكثر منه فى الأولى وهو فى الثالثة أكثر منه فى الثانية وسبب ذلك كثرة احتكاكه وزيادة خبراته ومايتعلمه . وإلى جانب الكثرة نجد التميز والتعقد ، وهذه الصفات تسير كلها جنباً إلى جنب فى النمو .

وقد يسر الأستاذ بريدجز Bridges[1] ، البحث فى السلوك

(١) Bridges, K. M. : Social and Emotional Development of the Pre-School Child. pp. 37 - 38

الاجتماعى للمرحلة قبل الدراسية بوضعه مقياساً يقيس السلوك الاجتماعى ، ويعبر عن السلوك الاجتماعى تعبيراً كمياً . ولم يصل قياس بريدجز فى دقته وأهميته للدرجة التى وصلت إليه مقاييس الذكاء المعروفة ، ولكنه ينظر إليه على أنه طريقة لدراسة السلوك الاجتماعى للطفل بين الثانية والخامسة . والمقياس على قسمين : القسم الأول ويبين علاقة الطفل بغيره من الأطفال ويحتوى على خمسين شرطاً . أما القسم الثانى فيبحث فى علاقة الطفل بالراشدين ويشمل على خمسة وثلاثين شرطاً . وسأعطى القارىء مثلا لهذه الشروط (الشروط الاثنى عشر الأول لعلاقة الطفل بغيره من الأطفال) وقد وضعت علامة √ أمام الشروط الأكثر أهمية :

هل حدث أم لم يحدث أن :

١ — لعب الطفل مع غيره من الأطفال .

٢ — تحادث مع غيره من الأطفال .

٣ — اتصل أحياناً بأطفال واصطدم معهم كدفع أحدهم أو ضربه .

٤ — قلد أفعال أطفال آخرين .

٥ — قلد كلمات أطفال آخرين .

٦ — قلد ضحك أطفال آخرين .

√ ٧ — كثيراً مايخاطبه الأطفال .

١٨ — شاطر طفلا آخر نشاطاً جديداً فى اللعب .

١٩ — اشترك مع مجموعة من الأطفال فى اللعب .

١٠ — حرص على الحصول على موافقةورضا طفل آخر .

١١ — طلب مساعدة طفل آخر له .

١٢ — يتنازل عن لعبه دائماً إذا ماطلب منه ذلك ، وكان الطلب معقولا عادلا .

١٣ — ينتظر دوره دائماً .

١٤ — حاول أن يدافع عن حقه فى مكان أو فى شىء .

١٥ — صرح بغلطات الآخرين .

١٦ — حاول مساعدة آخرين .

١٧ — كف عن العمل ليساعد طفلا آخر .

١٨ واسى آخر فى محنته وضيقه .

والطريقة التى تتبع هى أن يعطى كل شرط درجة واحدة إذا كانت الإجابة بالإيجاب وصفر إذا كانت الإجابة بالنفى . أما الإجابات التى لايكون الملاحظ متأكداً منها فلا تعطى عليها درجات وتستبعد. وتكون النسبة كالآتى :

$$\text{النسبة} = \frac{\text{عدد الشروط التى أجيب عنها بالإيجاب} \times ١٠٠}{\text{عدد شروط الاختبار مطروحا منها الشروط المستبعدة}}$$

ويتضح لنا من هذه الشروط ومن غيرها أن الطفل نما فى سلوكه الاجتماعى وبدأ يحترم ممتلكات الغير ويحاول مساعدتهم ثم هو يدافع عن حقه ، ولا نقصد من ذلك أن سلوكه الاجتماعى قد نضج تماماً ، ولكنه فى طريق النضوج فما زال الطفل يسلك سلوكا لايتناسب مع مايجب أن يكون عليه السلوك الاجتماعى المناسب ، ولكن هذه الأنواع من السلوك سرعان ما تستبعد .

ويخطىء من يظن أن الطفل بطبيعته يميل إلى الصداقة أو يصدف عنها ، فهو فى الحقيقة خاضع فى مسائل الصداقة والعداوة إلى العوامل البيئية . وتتحدد فكرة الطفل عن الشىء بمدى ما استفاده منه أو بمدى ما لحقه من الضرر ، فإذا ما ارتاح له واستفاد منه أقبل عليه ، أما إذا مسه الضر من ورائه وتعب منه أدبر عنه . والإقبال صداقة والإدبار عداوة ، والكائن البشرى فى نظر الطفل كالشىء سواء بسواء . وللبيئة أثر ، فتلك التى يحس الطفل فيها بأنه معزز مكرم غير تلك التى لايشعر فيها إلا بالضيم والضيق .

والدليل على ذلك أنه لو اجتمع عدد من الأطفال فى لعب جمعى فلن نجد للجنس أثراً (الذكور والاناث) فلن يأبه الطفل إذا كان شريكه فى اللعب ذكراً أو أنثى . وإذا ترك الأطفال وشأنهم سنجد أنهم سرعان مايكونون جماعات منسجمة الميول متقاربة الأعمار ولادخل هنا للدين أو الجنس أو الوسط الإجتماعى . أما

هذه الحواجز والحدود التى ستظهر فيما بعد فيرجع أصلها إلى تعاليم الوالدين للطفل وتوجيهاتهما له فيمنع من الاتصال بطفل معين أو بمجموعة من الأطفال ويعرف السبب منهما ، ولو ترك لنفسه لما سلك هذا السلوك .

ومن المظاهر المألوفة أن نجد طفلا فى الثالثة أو الرابعة يصاحب آخر فى مثل سنه ويصحبه فى غدواته وروحاته ويستريح له ، على أن هذه الصداقة سرعان ماتنتهى وقد تستمر عدة أشهر ، ولو أنها فى العادة لاتستمر أكثر من أسابيع أو أيام . ويندر أن تجد ثلاثة أطفال تربطهم صداقة وثيقة .

ولعل أهم العوامل التى تظهر الصداقة بين الأطفال هى نمو اللغة ، وهى وسيلة التفاهم وبواسطتها يمكن للطفل أن يفهم ما يريده صديقه من إفكار وإحساسات ورغبات . والأطفال فى هذا السن (٢ إلى ٥ سنوات) كثيرو الكلام ، على أن الملاحظ أن أحد الأطفال يود الإستئثار بالحديث ويحكى ماحدث له ومارأى وما سمع ، وقد تعقد صداقة بين أطفال أساسها الكلام ، على أنها مؤقتة سرعان ماتتلاشى . وكثيراً مايستخدم الطفل لسانه فيجذب انتباه الغير إليه فيكثر من الكلام ويطنب فى الحديث بل وقد يرفع صوته ليتمكن من أن يستحوذ على انتباه الراشدين الكبار ، وهو لذلك كثير السؤال والاستفهام يكاد لسانه لايعرف السكون ولا الراحة .

السلوك الإجتماعى عند الطفل فى المرحلة بعد الخامسة :

ننتظر أن ينمو السلوك الإجتماعى مع نمو السن ، على أنه من الملاحظ أن الطفل لايستطيع أن يفهم ويدرك مغزى الكثير من المعنويات قبل سن الثانيـــة عشرة ، فهو لايدرك ما المقصود بالديموقراطية أو الوطنية أو المستوى الاجتماعى ، بل وفى سن الثانية عشرة لن يستطيع الطفل ان يحدد بالضبط معانى بعض الكلمات التى لها دلالة معنوية لا مادية ، وقد دلت الأبحاث أن طفل الثانية عشرة يمكنه أن يحدد معنى كلمات معنوية مثل : دائم شجاعة — إحسان — دفاع . فى حين أنه فى سن الخامسة يمكنه بكل سهولة أن يحدد معنى كلمات مادية مثل كرة ، قلم ، عربة ، تفاحة .

وتزداد إتصالات الطفل الإجتماعية بعد سن الخامسة ، فهو يدخل المدرسة ، وفيها سيجد دوافع كثيرة للسلوك الاجتماعى . وقد أجرى الأستاذ رومباخ Rumbach بحثاً فى المانيا على أربعين طفلا فى السابعة من أعمارهم ، دخلوا المدرسة توآ ، فوجد أن ١٣ منهم كانوا واثقين وراضين عن دخولهم المدرسة ، أما ١٦ فكانوا غير مهتمين ولا مبالين ، أما الأحد عشر طفلا الباقين فكانوا خجلين . وبعد ستة أسابيع زال خضوعهم التام وانصياعهم المطلق للمدرسين ، وبرغم اعترافهم بسلطة المدرس إلا أن بعض ظواهر العصيان بدأت تظهر . وكثيراً ما كانت تجابههم بعض الصعوبات

منشؤها عدم معرفتهم مايجب عليهم عمله أو لعدم فهمهم مايلقى عليهم من أوامر وتنبيهات .

وهنالك تقسيمات كثيرة للعلاقات الاجتماعيـة بين الأطفال فى المرحلة مابين ٥ — ١٢ سنة منها التقسيم الذى قال به روميخ الألمانى ، فهو يقسم العلاقات إلى خمس مرتبات أساسية :

١ — الحماية ، فالطفل يتصل بآخرين بقصد الحمـاية ، فإذا ماهددت طمأنينته وراحته عمل على الاتصـال بغيره يستظل به ويحس بالراحة فى كنفه .

٢ — الإخلاص ، فقد تتمخض الاتصالات الاجتماعية عن وفاء وإخلاص نحو طفل آخر ، وليس السبب متصلا هنا بالزعامة ولـكن بحسن معاملة ولطف الطفـل المحبوب والذى يكون محلا للإخلاص .

٣ — اتصالات اجتماعية أساسها الزعامة (وسنشرح فيما بعد فـكرة الزعامة) .

٤ — وأحياناً يلعب الطفـل دور الحاكم المستبد الذى يأمر فيطاع ويريد فينفذ ما يطلب .

٥ — أما النوع الأخير فهو ذلك الطفـل الذى يشعر بأنه فاشل فى الناحية الاجتماعية ، وقد يكون سبب الفشل عيب جثمانى

أو سوء المظهر الخارجى كان يرتدى ملابس مهلهلة ممزقة قذرة . ومثل هذا الطفل يكون مشكلا فى المدرسة .

ومن الملاحظ أنه فى هذه المرحـــلة تغلب وتنتشر ظاهرة العصابات عند الأطفال فهم يكونون جماعات صغيرة (شلة) يلذ لهم جداً أن يعاكسوا المارة والباعة الجوالة، والويل للطفل الغريب الذى يقع بينهم . وتكون هذه العصابة متجانسة إلى حد بعيد فى الميول والمشارب، وإن كان الكثير من هذه الميول ينزع إلى الناحية العدوانيـة والتخريبية ، ويشعرون بكيانهم وقوتهم وباتحادهم ، ويعملون على استمرار هذا الاتحاد بالإخلاص بعضهم لبعض . وقد يرون فى فيلم سينمائى عصـابة تسرق فيلذ لهم جداً أن يغطوا وجوههم بأقنعة ويلعبوا دور اللصوص ، ولذا كان من الأوفق أن يمنع الأطفال فى هذه المرحلة من دخول بعض الأفلام السينمائية التى تؤثر على أخلاقهم .

وهنالك عوامل كثيرة تتفاعل بعضها مع بعض لتيسر قيام هذه العصابات والجماعات وتعمل على استمرارها فالتقارب العقلى عامل هام والسكن فى حى واحد عامل له شأنه وكذلك تقارب السن والقوة الجسمية . ويكون الأولاد لهم عصابات أما البنات فلهن جماعاتهن وهى أقل تماسكا من جماعات البنين . وفى أمريكا أندية للأطفال فى هذه المرحلة يقوم الأطفال فيهـا بكل شىء من

تسجيل الأسماء والعضوية . ولها شروط . ويغلب على جماعات الذكور الإخلاص والتفانى والوفاء والاتحاد . وفى هذه الجماعات تبدأ تظهر أولى مراحل العمل لخدمة المجموع ، الأمر اللازم فيما بعد . فالطفل يشعر بأنه جزء من الجماعة فإذا حاد عن الصواب أثر فى الجماعة كلها وحينئذ ينظر إليه كشاذ ، والجماعة تتطلب الانسجام .

هذا فى أمريكا ، أما فى مصر فالأمر يدعو إلى الرثاء ، وكلنا يرى الأطفال وقد افترشوا أفاريز الطرق واتخذوا من الأحجار أدواتاً للعب ومن المارة تسلية غير مقبولة . وليس اللوم عليهم فإلى أين يذهبون وليس لهم ناد يأويهم أو حديقة عامة تلم شملهم ؟ ومن العدل أن ننوه هنا بمجهود إدارة خدمة الشباب بوزارة المعارف فقد أنشأت أندية صيفية فى بعض المدارس الابتدائية والثانوية بالقاهرة ، وفى هذه الأندية يمضى الأطفال معظم وقت فراغهم فى تسلية مفيدة جسما وعقلا وخلقا . ونرجو أن تنتشر هذه الفكرة فى معظم مدارس القطر المصرى فهى طريق ناجح أكيد لخلق المواطن الكامل .

مشاجرات الأطفال :

لكل طفل رغباته التى يود الوصول إليها ، وهذه الرغبات كثيراً ماتتعارض مع رغبات غيره من الأطفال فينشأ الاحتكاك

والتصادم ، وهو أمر شائع بين الأحداث . ويرى جرين Green[1] أن المشاجرات تكثر وتشتد كلما زادت علاقة الصداقة بين الطفلين . ولوحظ أن الصداقة هى التى تؤدى إلى التشاجر ، والتشاجر يؤدى بدوره إلى صداقة ، بل إن المشاجرة جزء من العلاقات الاجتماعية بين الأطفال .

وتختلف أسباب المشاجرة من وقت لآخر عند الطفل الواحد ، كما تختلف من طفل لآخر ، فقد يلجأ طفل إلى المشاجرة كى يثبت مركزه وسط الجماعة أو ليجذب إليه الأنظار ، فطفل فى مدرسة ابتدائية لوحظ أنه انتقل فجأة من الهدوء والسكينة ودماثة الخلق إلى المشاجرات والمنازعات مع غيره من الأطفال . وبعد أن درست حالته ثبت أنه لجأ إلى هذا الأسلوب لأنه فشل فى جذب انتباه المدرسين إليه بعد أن حاول ذلك عن طريق التحصيل العلمى والاستذكار . وقد يكون سبب الميل للاعتداء هو الغيرة ، فشعور الطفل بالغضب يدفعه إلى أن يتشاجر مع غيره حتى يشفى ما فى نفسه من حقد لأنه لم يستطع أن يحصل على ما حصل عليه غيره .

وقد حدث فى إحدى مدارس الحضانة أن وجد طفل ذكر كثير التشاجر مع أقرانه ، وكان فى بداية عهده بالمدرسة صديقاً لطفل آخر غير أنه كان مسيطراً عليه يأمره فيطيع أمره ويوجهه

---

(١) Green, E. H. : Child Development.

كيف يشاء . ثم أبعد عنه هذا الصديق فعمد إلى اختيار زميل اخر يحل محل صديقه الخاضع له ، ولكن عبثاً فإن أحداً لم يرض أن يرضخ له واستبعده الأطفال من مجلسهم . وهذا ضايقه فعمد إلى المشاجرة مع أى طفل . وحالة أخرى لطفلة فى نفس المدرسة كانت خاضعة لطفل فى مثل سنها ، ولاحظت المشرفة ذلك فأدمجتها فى مجموعة من الأطفال أنست إليهم واستراحت لهم حتى إذا ما أمرها الطفل لم ترضخ لأمره بل تعارضه ويتنازعان ، وتستمر المنازعات وتكثر كلما زاد اتصالها بأقرانها .

وتتطور مشاجرات الأطفال من الشد والجذب وإلقاء بعض الكلمات والجمل إلى الضرب العنيف وإصابة الوجه بخدوش تدميه . وهذا ملاحظ خصوصاً بين البنين ، فهم يكثرون من المشاجرات أكثر من البنات ويميلون إلى الاحتكاك والمنازعات لأتفه الأسباب . وتعانى المشرفات فى مدارس الحضانة ورياض الأطفال الكثير من هذه المشاجرات ، وقد يتشاجر طفلان على امتلاك صندوق ، ويلوح أنه من السهل جداً فض ذلك النزاع ، ولكن لو دققت المشرفة قليلا لعرفت أن مسألة الصندوق مسألة تمويه تخفى وراءها سبباً آخر دفع أحد الطفلين إلى انتهاز الفرصة ليضرب الطفل الآخر . فالمشرفة يجب أن تحترس فى أمثال هذه المشاجرات ولابد لها أن تحاول معرفة السبب الحقيقى وتعالجه ، لا أن تكتفى

بالظاهرة الخارجية . فإذا مادخل الطفل المدرسة الابتدائية واندمج في عصابة حلا له ولهم أن يتشاجروا وينتهزوا كل فرصة ممكنة ليثيروا المشاجرات . ويرى الأولاد في المشاجرات تميزاً وتفريقاً واضحاً بينهم وبين البنات ، ويرون أنها علامة من علامات (الرجولة) التي يهدفون إليها . وكثيراً ما نجد أطفالا في العاشرة أو أكثر بقليل يكشفون عن سواعدهم وعن صدورهم فخورين بعضلاتهم متحدين رفاقهم في حمل الأثقال ، والعرض عن الذات هنا سائد منتشر . وكلما كان الجسم قوياً والعضلات متينة كلما استطاع الطفل أن يفوز في المشاجرات فترمقه عيون الأطفال بالإعجاب والفخر وهذا ما يصبو إليه .

وقد يعمد الطفل الضعيف جسمياً إلى وسائل أخرى يستخدمها في مشاجراته ويغطي بها ضعفه البدني ، فقد يختفي وراء شيء ثم يلقي بالحجارة على خصمه أو يأخذ شيئاً له ويدمره أو يهلكه وقد يعمد إلى التشنيع به بين رفقائه أو اختلاق التهم له . وليس هذا غريباً على طفل الثامنة أو التاسعة فهو كثيراً مايقف أمام المرآة ويقارن نفسه بغيره من الأطفال ويعرف مدى قوته بالنسبة لغيره ، وهنا يرسم علاقته مع أنداده وأصدقائه ، فإن كان قوى البنية كبير الجسم نسبياً ، فالقوة حينئذ دستوره ، قوة يتكلم عنها صريحاً دون مداراة . أما إن كان ضعيفاً ففي أصناف السلوك الملتوى المقنع مجال كبير لمحاربة الخصم .

والخطر كل الخطر أن نترك أطفال المدرسة الابتدائية (٨ — ١٢) دون رقابة فعلية شديدة حاسمة فهم ميالون إلى المشاجرات وغريزة المقاتلة عندهم شديدة قوية[١] ، ولا يمكن كبتها أو ضغطها ، فالضغط يولد الانفجار ، ونحن لا نريد انفجاراً بل علاجاً معقولا مقبولا ولن يتأتى ذلك إلا إذا أعليت هذه الغريزة ، فيمكن للطفل أن ينفس عنها فى الألعاب الرياضية الجمعية والفردية . على أن الجمعية أكثر قيمة وفائدة ففيها روح العصابة Gang Spirit التى تسيطر على الكثير من سلوك أطفال هذه الفترة ، وفيها الفناء لخدمة المجموعة ، وفيها التعاون والتآخى للوصول إلى النصر ، وفيها احترام القوانين والحذر من المخالفات ، وفوق كل هذا وذاك فهى وسيلة مثمرة أكيدة لإعلاء غريزة المقاتلة ، وتوجيهها توجيهاً صالحاً لخير الفرد والمجموعة والبعد بها عن عما يضر المجتمع .

وقبل أن نختتم الكلام عن المشاجرات والمنازعات يجدر بى أن أشير إلى المشاجرات التى تنشب بين الإخوة وهى كثيرة الحدوث ، وقد ينظر إليها الوالدان بشىء من الامتعاض والقلق . غير أنه فى الحقيقة تعتبر هذه المشاجرات سلوكا عادياً لا بد من حدوثه فما اجتمع طفلان أخوان فى مكان واحد إلا وكانت المنازعات طرفاً

---

(١) يرى ماكدوجال Mc. Dougal فى Social Psychology أن غريزة المقاتلة لعبت دورا أكبر مما لعبته أية غريزة فى تطور التنظيم الاجتماعى .

ثالثاً بينهما ، فكل يسعى إلى فرض سلطته وتأكيدها ، فالأخ الأكبر يشعر أنه بحكم كبر سنه يجب أن تكون له الكلمة العليا على أخيه الأصغر منه ، وهذا الأخ الأصغر يرى فى تدليل الوالدين له سنداً يعتمد عليه فى معارضة أخيه الأكبر .

وسبب جزع الوالدين وقلقهما هو الاعتقاد الخاطىء بأن الأطفال إذا تشاجروا فى الصغر فستظل طبيعة المنازعات بينهم فى الكبر ، ولن ترفرف عليهم أعلام المحبة والسلام بل ستنتشر بينهم روح العداء والنزاع . وهذا ظن بعيد عن الصحة ، فطبيعة الطفولة تستدعى التشاجر ، فإذا ما كبر الإخوة حل الوئام محل العداء وتكاتفوا ضد الغريب وضد العدو وضد الصعاب . أما حالات العداء بين الإخوة الكبار ، فهذا شذوذ ، وما ينطبق على الشاذ لا يصح أن يكون حكماً عاماً .

الزعامة :

كثيراً ما نجد رضيعاً فى شهره السادس إذا وجد مع رضيع آخر يحاول أن يكون له التأثير الأول فى الموقف بل ونجده أحياناً يصيح عالياً إذا ما وجد أن الآخر قد صاح (وهو يرى أن صياح الآخر من شأنه أن يجذب إليه الأنظار ، ولا يجب أن تتجه الأنظار إلى الآخر دونه ، فهو يصيح وصياحه يكون أعلى من صياح الآخر) ويختلف الأطفال فى مقدار ما يملكون من الميل للزعامة والسيطرة

حتى إذا ما كانت نهاية السنة الثانية وجد أن هناك نوعين متميزين:

١ — نوع يصل فيه الطفل إلى الزعامة عن طريق مهاجمة وإخضاع الآخرين .

٢ — نوع يصل فيه الطفل إلى الزعامة عن طريق تشجيع واستهواء الآخرين .

والصفة المميزة للزعامة فى المرحلة قبل الدراسية هى قلة عدد من يخضعون للزعيم فلا يزيد العدد عن ثلاثة أو أربعة أطفال . وعلى المحكومين أن يرضخوا لأوامر (الرئيس) وهذه الأوامر كثيراً ماتكون لصالح الزعيم ويؤمر بتنفيذها صغار الأطفال . والزعيم هو المركز الذى يلتف حوله الأطفال ومنه تصدر التوجيهات والأوامر كأنواع اللعب ومكانه . . إلخ .

وتتسع اختصاصات الزعيم فى المرحلة الدراسية (الإبتدائية) فهو يدير دفة الألعاب ويقسم الفريقين ، ونلاحظ هنا أن عدد الخاضعين يكبر ويشترط فى الزعيم أن يكون رياضياً فذاً بشهادة الجميع وعلى استعداد لتقبل التحدى . والزعيم العاقل يجب ألا يصدر الأوامر تباعاً ثم يطلب ضرورة التنفيذ ، بل عليه أن يستشير المجموعة ، وهو فى العادة يعرف ماتريده هذه المجموعة فيصدر أمره وهو مطمئن إلى أنه سينفذ ، لأن المجموعة تريد هى أن تنفذه .

وقد أجريت أبحاث على هؤلاء الزعماء منها أبحاث هولنجورث[1] وشرحت هذه الأبحاث الصفات التى يتميز بها الزعماء : التكوين الجسمى الصحيح القوى ، والحيوية والقدرة على تحمل المشاق والتصور والذكاء . ولا يشترط أن يكون تحصيلهم الدراسى جيداً، وتتفق مشاربهم إلى حد بعيد مع من يخضعون لهم ، ولا يجب أن تكون الهوة واسعة عميقة بينهم وبين من يخضعون لهم فى القدرات ، فكان هنالك طفل مستوى ذكائه مرتفع جدا (١٩٠) ولم تكون له علاقات اجتماعية مع زملائه فى الفصل والذين يصل مستوى ذكائهم إلى (١٠٠) ، ولذا لم ينتخب مندوبا أو ممثلا لهم ، وفى العام التالى وضع فى فصل مستوى ذكائه (١٦٠) فأتيحت له الفرصة ليكون زعيما ورئيساً فى بعض أوجه النشاط .

العلاقة بين الولد والبنت :

من النادر أن نجد طفل الثانية أو الثالثة يجد فرقاً واضحاً فى اللعب مع الذكر أو الأنثى فكلاهما سواء بسواء ، ويبدأ فى سن الرابعة يميز قليلا بين الذكر والأنثى وبين صفات كل منهما . وقد لوحظ فى المتوسط أن الأولاد يكونون أكثر حيوية ونشاطاً فى لعبهم ، على أن الفرق بين الذكر والذكر أكثر من الفرق بين الذكر

(1) Hollingworth : Gifted Children; their Nature & Nurture.

والأنثى . ومن المشاهد أن الولد يتشاجر مع الولد والبنت تتشاجر مع البنت على أنه من النادر أن يتشاجر ولد مع بنت . وترى اليزابث هاجمان E. Hagman [١] أنه فى المرحلة قبل الدراسية يغلب أن نرى صداقة بين الولد والولد وبين البنت والبنت أكثر من الصداقة بين الولد والبنت . ويميل الولد إلى اللعب مع الولد والبنت مع البنت ، وهذا لايمنع طبعاً من أن نجد ولدا يلعب مع بنت أو بنتاً تلعب مع عدة أولاد . لكن المهم أن الولد لن يهتم أو يأبه للجنس الآخر ولن يعاملها معاملة خاصة .

ومن الطريف أن ننوه بالدراسة التى قام بها كامبل Campbell [٢] على الأطفال من سن الخامسة حتى سن السابعة عشرة ، وخرج من دراساته إلى أن الولد فى المرحلة من ٥ — ٨ لايظهر اهتماماً بالبنت ولا يعنى بمظهره وملابسه وكلامه أمامها ، ولكنه يفضل المرأة عن البنت فى هذه المرحلة ، يفضل المرأة الكبيرة التى يلعب معها والتى تسايره فى آرائه وأفكاره وطلباته . ولا يجد الطفل غضاضة فى أن يشترك فى اللعب مع مجموعة من البنات ، وسيرى أنهن زميلات فى اللعب فقط ، وسيعاملهن كما يعامل صديقه الولد

---

(١) H.agman, Elizabeth : The Companionships of Pre-School Children.

(٢) Campbell, E. : The Social Sex-Development of Children.

وإذا طلب منه أن يتخير فريقه فقد يختار بعض البنات ولكن سيكون أساس الاختيار والتفضيل لا الجمال ونظامة الهندام ولكن المهارة فى اللعب . وفى سن التاسعة يفضل الولد أن يلعب مع الأولاد ويستبعد البنات ، ويرى فيهن ضعفاً بدنياً لا يتلاءم مع مايحس به الولد من قوة جسمية ، ويظل الولد يبتعد عن البنت حتى حوالى الرابعة عشرة من عمره ، وهنا يحدث التغير فيهتم كل بملابسه وهيئته وشكله ويحس الولد بشىء من الارتباك إذا واجه مجموعة من البنات ، وتخجل البنت إذا تحدثت إلى الولد ، وتبدأ عوامل الإتصال تظهر بعد أن كانوا يمعنون فى الإنفصال .

العوامل التى تؤثر على الترقى الإجتماعى للطفل :

لعل القارىء يذكر من قراءته للصفحات القلائل السابقة أننا وصلنا إلى أن الكثير من أنواع السلوك الإجتماعى المختلفة تنجم وتنتج عن البيئة (وهى كل مايحيط بالطفل) ، فالبيئة المنحطة اخلاق من شأنها أن تنتج طفلا منحط الخلق . وقد أبنت فى الفصل الثالث أثر البيئة وهو خطير لا يغفل فى تشكيل خلق الطفل . وكلنا يرى كل يوم أنواعاً من السلوك الاجتماعى تقابل بالرضا أو السخط ، وقد تكفى كلمة واحدة لتبين مقدار مافى قول الشخص من المجاملة ودماثة الخلق . وكثيرا ماترى شخصاً يعترض طريقك وأنت سائر ليقول لك بلهجة خشنة سمجة وبوجه عبوس « الساعة كام؟ »

وقد تحس بنفور نحوه واشمئزاز من الطريقة التى يسألك بها الساعة وقد تعاقبه فلاترد عليه . وآخر يقابلك بوجه باش هاش يقول : « من فضلك . . تسمح الساعة كام ؟ » وشتان بين الطلبين .

وتؤثر على الترقى الاجتماعى عند الطفل عوامل كثيرة سأحاول أن أتعرض لبعضها :

أولا : الحالة الصحية والجسمية للطفل : غنى عن القول أن الصحيح الجسم أسعد حالا من السقيم العليل فالأول يشعر بالراحة ويحس بالنشاط ويميل إلى الحركة أما الثانى فهو متعب مجهد يجد نفسه قاصراً عن غيره يميل إلى الركود والسكون ، فإن به علة تضطره إلى ذلك ، ولايستطيع أن يجارى الأصحاء ولا أن يشترك معهم فى لعبهم ولهوهم ونشاطهم ، وبذلك لايشترك فى الحيـــاة الاجتماعية ولا يجد أمامه الفرصة موانية للترقى الاجتماعى . وقد ثبت أن الطفل العليل الذى ينال قسطاً كبيراً من العناية والرعاية ولا يشاطر أقرانه اللعب ، نجده ينشأ محباً للأثرة أنانياً ، كما أن الطفل الذى لايصيب من الغذاء القدر الكافى ويحس بأنه أضعف فى القوة الجسمية من غيره ينشأ خانعاً خضوعاً خـ ـولا . كما أن الشذوذ فى الجسم كالطول المفرط أ، " ـ ـة المفرطة أو القصر الشديد أو العرج أو الحول أو أى عيب جسمانى من شأنه أن يجعل صاحبه يحس ويشعر بعقدة النقص التى تظهر بصور مقنعة

فى معظم سلوكه مع الآخرين وتؤثر بذلك على ترقيه الاجتماعى .

ثانياً : الأسرة والبيئة المنزلية : قد لا يبارح الطفل المنزل قبل الخامسة من عمره أو بمعنى آخر فإن طفولته الأولى يقضيها فى المنزل ، والبيئة المنزلية لها آثار خطيرة فى الترقى الاجتماعى عند الأطفال . وقد دلت آراء الفرد أدلر Alfred Adler [1] على أن الطفل الأول فى الأسرة يتمتع بمركز رفيع لأنه الولد الوحيد ، ولكنه يتخلى مضطراً عن هذا المركز بعض الشىء إذا ماولد طفل آخر . ويختلف مركز الطفل الثانى عن مركز الطفل الأول ، فهو يتقدم فى السن ولا يجد نفسه موضع الرعاية من الأسرة ولكنه يتتبع خطى أخيه الأكبر ويحرص أن يكون مثله فى كل شىء . ثم هو يحس برغبة ملحة فى أن يسبق أخاه وأن يحل محله وتتم كل حركاته على أنه يتطلع إلى شىء يبغى الوصول إليه . أما إذا كان فى الأسرة عدد من الأبناء قد كبروا كلهم قبل أن يولد طفل آخر فإن الطفل الأصغر سناً يجد نفسه فى مركز شبيه بمركز الولد الأول (البكر) . ومركز الطفل الأصغر على جانب كبير من الأهمية من الوجهة النفسية ، فهو بحكم كونه الأخير والأصغر يتمتع بمركز ممتاز موطد ، ومركزه هنا أكثر اطمئناناً من مركز الثانى . إذ أن الثانى مهدد بفقد مركزه إذا ماولد له أخ أصغر منه . أما الطفل

(1) Adler, A. : The Science of Living. ch. 8.

الأخير فهو بمنجاة من هذا الخطر الداهم ، وهو يشبه الولد الثانى من حيث النشاط والرغبة فى التقدم والتفوق على غيره ، إلا أنه يميل بوجه عام إلى أن يسلك طريقا يخالف الطريق الذى سلكه غيره من أفراد أسرته فإن كانت الأسرة أسرة علماء فيغلب على الظن أن يكون أصغر الأبناء موسيقيا أو تاجرا ، وإن كانت أسرة تجار فالغالب أن يكون هذا الطفل الأخير شاعرا ، ويجد أن من الأسهل له أن ينزل منفردا الى ميدان آخر من ميادين الحياة عن أن ينافس سائر إخوته فى ميدانهم .

وإذا كان الطفل وحيد والديه كان هذا المركز منشأ متاعب له لأنه كان موضع الرعاية طوال أيام الطفولة ، ويريد أن يظل فى هذا الوضع ، فهو لا يستعمل المنطق فى تفكيره ولكنه يفكر تفكيرا يتمشى مع أسلوب حياته الخاص . ويظن بعض الناس أن وجود ولد واحد فى أسرة سائر أفرادها من البنات كفيل بأن يسلك فى هذه الحال سلوك إخوته من الفتيات . ولكن هذا ظن مبالغ فيه بعض الشىء وذلك راجع إلى أن الأسرة فى هذه الحالة تكون قائمة لمصلحة الإناث . وفى وسع الإنسان إذا دخل بيتاً أن يدرك من فوره إذا كان أكثر أولاد الأسرة من الذكور أو الإناث (فاذا كانت الأغلبية للصبيان كثرت الأشياء المكسورة فى البيت وإن كانت للبنات كانت الدار أكثر نظافة وترتيباً) . وتلك البيئة إما

أن تضطر الطفل إلى اصطناع الرجولة والإسراف فيها، وإما أن تنشئه كما تنشأ البنات اللاتى تضمهن الدار فترى الطفل إما ليناً مائعاً وإما وحشياً لاتلين له قناة، وفى هذه الحال الأخيرة يظهر الطفل وكأنه يحاول دائماً أن يظهر ويثبت للناس أنه رجل بحق.

وبالمثل إذا كانت هنالك بنت واحدة وسط أطفال كلهم ذكور فهى إما أن تكون هادئة كل الهدوء تظهر فيها أخلاق الأنوثة واضحة، واما أن تريد التشبه بالأولاد وتسلك سلوكهم وتأتى أعمالهم وهنا يظهر الشعور بالنقص جلياً واضحاً[1]، فهى فى بيئة يتفوق فيها الذكور، وسبب عقدة النقص عندها هو شعورها بأنها ليست إلا فتاة، وتبدو عقدة التفوق التى تحاول بها الفتاة أن تعوض عن قصورها فى كونها تلبس ملابس الصبيان أو أن تأتى حركاتهم، وعلى حد تعبير أدلر، تتمتع بما تفهم أن الرجال متمتعون به من علاقات جنسية، ولو أن هذا الرأى يحتاج إلى كثير من النقد.

والحالة التى يكون فيها المولود الأول ذكراً والثانى أنثى يغلب عليها المنافسة دائماً. فالبنت يدفعها إلى الأمام عاملان: كونها الطفل الثانى ثم أنها فتاة. وهى حسب أقوال السالفة عن الطفل الثانى تتمتع بالنشاط والحيوية والكثير من الاستقلال. ويدرك الولد لذلك كيف تقترب

---

(١) حسب رأى الفرد أدلر صاحب مذهب علم النفس الفردى Individual Psychology

منه شيئاً فشيئاً ، ويهوله الأمر ، خاصة إذا عرفنا أن البنت تنمو فى جسمها وعقلها أسرع نمايتمو الولد : فهى فى الثانية عشرة أكبر جسما وأنضج عقلا من الولد فى نفس السن ، ثم يجاهد الولد ليقف أمام تقدمها ، ولكنه سرعان مايهزم ويفر فيطرق فى يأس أبواب الفنون الجميلة أو الألعاب الرياضية ، وقد يصاب بالأمراض النفسيه أو يصبح مجرماً أو مجنوناً ، فهو لايقوى على الانتصار ولا يطيق الإنكسار .

هذا ، وللوسط الاجتماعى الذى تكون عليه العائلة آثار كبيرة فمن أسباب الإجرام التى أوردها الاستاذ سيرل برت Cyril Burt [1] عند الأحداث : سوء النظام فى المنزل وسوء المثل العليا المنزلية كأن يكون الوالد عربيداً أو سكيراً أو أن تكون الام سيئة الخلق . وتمخضت الأبحاث التى قامت بها شارلوت بولر Ch. Bühler فى ألمانيا والنمساعن : أنافى البيئات المنزلية الفقيرة جدا نجد أن الطفل الوحيد مجد جدا فى دراسته أكثر من الطفل الذى له أخوة ذكور أو إناث . وفى البيئات المنزلية المتوسطة نجد الحال على العكس . كما أن الطفل الوحيد يميل إلى سرعة التهيج والخجل وكثرة الكلام والنزعة الديكتاتورية فى المعاملة . وكلما كان للطفل إخوة وإخوات كلما كان أسعد حالا . وتدل أبحاث Brooks و Hooker و Fenton

---

1) Burt, C. : The Young Delinquent.

وWorchester بروكس وهوكر وفينتون وورشستر وغيرهم فى أمريكا على أن مركز الطفل بين أخوته أثره أقل بكثير فى الترقى الاجتماعى من حالات أخرى مثل كون الطفل غير شرعى أو توفى والده بعد والدته مباشرة أو قبل ولادته أو تزوج والده غير أمه أو أنه يجهل والديه تماماً وتبنى .

هذا هو الطفل فى بيئته المنزلية ، فإذا نشأ مجرماً ، هل تلقى عليه اللوم أم تلقى اللوم على من رباه ؟

ثالثا : البيئة المدرسية ، وصف الدكتور جون ديوى John Dewey المدرسة بأنها بيئة صناعية خلقها التطور الاجتماعى كى يمرفيها الطفل بحيث يعد بعد ذلك إعدادا صحيحا لمواجهة مشاكل الحياة الإجتماعية . ويرى أن المدرسة حلقة تصل بين مرحلتين : مرحلة الطفولة فى المنزل ومرحلة اكتمال النمو فى المجتمع وعرفنا أن هذه الحلقة الوسطى يجب أن تجمع بين صفات المنزل والمجتمع . ومنذ الخامسة حتى حوالى الثانية والعشرين يمضى الطفل ثمانية أشهر كل عام فى المدرسة مع زملائه التلاميذ ويخضع لأوامر المدرسين والإدارة المدرسية . ومن الغريب أن نجد الشعب يطالب المدرسة بأن تصلح الطفل وأن تخلق منه شخصا كاملا بكل ما تحويه الكلمة من معنى نبيل كبير ، وهم بهذا يطلبون المستحيل . فقد عرفنا أن الطفل يمضى ثمانية أشهر كل عام فى المدرسة ويمضى كل يوم ثمان

ساعات على الأكثر أى نصف وقت اليقظة ، أى أن المدة الكاملة المتتابعة التى يقضيها الطفل كل عام فى المدرسة لا تتجاوز بأية حالة من الأحوال ثلث العام ($\frac{1}{2}$ وقت اليقظة كل يوم من الثمانية أشهر أى أنه يمضى فى المدرسة أربعة أشهر أى ثلث العام) ، وهو يدخل المدرسة فى سن الخامسة ويبارحها حوالى الثانية والعشرين أى أن الفترة التى يقضيها الطفل فى المدرسة من يوم الميلاد حتى يوم إتمامه الدراسة العليا لن تتجاوز خمس سنوات ونصف السنة . أو بمعنى آخر فإنكم تطلبون من المدرسة التى يمضى فيها الطفل ربع الوقت (من الميلاد حتى السنة الثانية والعشرين) أن تقوم بالعبء الأكبر فأى إجحاف أكثر من هذا ؟

المدرسة بمفردها يستحيل عليها أن تقوم بكل شىء بل لابد من المعونة الخارجية ؛ من المنزل ومن المجتمع . والمدرسة مقيدة بقيود مادية مالية لا تستطيع أن تذللها ، فكيف لها بالإشراف على الطفل بعد أن يبارح المدرسة ، فهذا من واجب المنزل ، لا يمكنها أن تشرف عليه فى الاجازات الطويلة إلا إذا كان لديها استعداد كاف لذلك ، وأنى لها به . وسنصطدم بمشكلة وقت الفراغ وكيف يمضيه الطفل ولعل خير مثل لسوء استخدام وقت الفراغ ما أورده الدكتور عبد العزيز القوصى فى كتابه أسس الصحة النفسية ص ٢١٤ وهو لتلميذ كان يشكو من النوبات العصبية وكان إلى جانب شكواه

هذه منحل الخلق فكان يمارس العادة السرية بافراط مخيف وكان يدخن ويغازل الفتيات ، وكان فى المدرسة الثانوية وعلل سلوكه هذا بأنه لا يجد أمامه فى فصل الصيف عملا يقوم به إلا التدخين والاستمناء ومغازلة البنات .

ولا أقصد من هذا أن أحرر المدرسة من اللوم بل عليها تبعة لا تغفل فإن الكثير من المناهج المدرسية والنظم المدرسية من شأنها، بوضعها الراهن ، أن تنفر التلميذ من المدرسة . ويقول أدلر فى هذا[1] : « من وجهة نظر علم النفس يجب أن يبقى المدرس مع تلاميذه سنتين أو ثلاث أو أربع حتى يستطيع أن يفهمهم وتتاح له الفرصة ليدرسهم دراسة صحيحة ويقف على ميولهم ورغباتهم ويعمل لتحقيقها ما أمكن ، أما أن يتغير المدرس كل عام فهذا أمر مكروه » . ويقول كذلك بضرورة جعل المعلومات المدرسية متصلة ومرتبطة بالحياة والبيئة التى يعيش الأطفال فيها حتى يحسوا بقيمتها ويشعروا بفائدتها وهذا يتفق مع ما قاله جون ديوى[2] بضرورة مراعاة عنصر الشوق الذاتى فى أساليب التعليم ومناهجه وطرقه وضرورة الإهتمام بوقت الفراغ .

هذا ، والبيئة المدرسية عامل فعال فى الترقى الإجتماعى لما فيها من

(١) Adler, A. : The Education of Children. P 181

(٢) Dewey, J. : Interest & Effort in Education.

جماعات مدرسية مختلفة وألعاب رياضية متنوعة . والمدرسة الحديثة تعمل جاهدة لتعود الطفل التعامل الناجح مع المجموعة ، وتعامل الطفل الخجول معاملة خاصة حتى يزول الخجل عنه . ومن الفخر أن ننوه بأن أساليب الدراسة ومناهجها قد بدأت بالفعل تتحول إلى ما فيه خير الطفل واستفادت فائدة ضخمة من أبحاث علم النفس وبدأت تطبق نتائجها فى مدارسها ، وتغلغلت بعض طرق التربية الحديثة فى مدارسنا المصرية ، طريقة الشروع مثلا ، ولكن على نطاق ضيق ولم يمكنها أن تنتشر لعاملين هامين : الصخرة المالية الكؤود وقلة عدد المدرسين الصالحين .

رابعا : المعسكرات والأندية والعصابات : نأمل أن تنتشر الأندية المدرسية بكثرة فى المدارس الابتدائية المصرية وقد عرفنا القيمة الإجتماعية لها وللمعسكرات ففيها التعاون واضح والاعتماد على النفس جلى وتحمل المشاق ظاهر . وغنى عن الذكر أن خروج الطفل من منزله وبعده عن والديه ونومه فى خيمة وإعداده طعامه بنفسه وخضوعه لقانون المعسكر الصارم ومعيشته المنظمة التى لا يجب أن يحيد عنها ، كل هذا من شأنه أن يعود الطفل صفات ما كان يحصل عليها لو ظل يعيش فى كنف والديه . وخير ما فى الأمر أن الطفل سيتعود الاشتراك فى الحكم والإدارة وتحمل المسئولية ويبعد عن الحياة الهنيئة الناعمة ليواجه الخشونة فيصقل

خلقه ويجلى نشاطه ويمحو كسله . وفى المعسكرات والأندية يقابل أصدقاء جدد ويزيد من علاقاته الاجتماعية مع غيره من الأطفال.

هذه بعض العوامل المؤثرة على الترقى الإجتماعى عند الأطفال وقد أمدتنا المدنية الحديثة والاختراعات الجديدة بعوامل أخرى جعلت الطفل يشعر بأنه لا يكتفى بمعرفة بيئته المحيطة به بل فى استطاعته أن يعرف الشىء الكثير عن هؤلاء الأقوام الذين يعيشون فى أطراف العالم ، ولم يعد الأطفال يخافون الغريب الغير مألوف بل يجدون فيه شوقا ولذة . فقد يجلس الطفل إلى جانب المذياع فيسمع صوتا آتياً من فرنسا وآخر من كندا وثالثا من الباكستان ، ويحس بذلك أنه ليس غريبا ، بل كل هؤلاء أصدقاء له ، لأنهم ليسوا بعيدين عنه بل فى متناول يده . إنه يذهب إلى دور السينما ويرى الأفلام الأجنبية ويرى حياة الإنجليز والهنود والأمريكيين ، ويرى أطفالا مثله يعيشون فتطمئن نفسه ، ويحس بأنهم قريبون منه . ثم يقطع الفيافى ويعبر المحيطات إن أراد ، فوسائل النقل ميسرة . يشعر الطفل أن الكرة الأرضية وحدة وأن سكانها متقاربون متحابون فينشأ ناقما على العنصرية لا فرق عنده بين أبيض وأسود ولا تميز بين شعب وشعب فكلهم سواسية وكلهم إخوان متحابون وأعوان لا يختصمون ، يعمل الواحد لمصلحة الجماعة ولرفاهية الجماعة ، يضع الواحد يده فى يد زميله ليسعدا

ويحسا بالراحة والطمأنينة . يمسك الطفل قطعة (الشيكولاته) ويتذوقها وينعم بطعمها اللذيذ ثم يسرح بخياله ويصل إلى الغابات الاستوائية حيث زميله الزنجى يجوس الغابات ويتحمل الحر والأمراض والأوبئة ليحصل على الكاكاو ويسلمه إلى غيره فيحمله فى سفينة تمخر عباب المحيطات حتى يتلقفها ميناء أوروبى ثم تشحن إلى مدينة داخلية حيث يتعاون نفر كبير فى صنع قطعة (الشيكولاته) ثم تحمل اليه فى بلده ليشتريها بدريهمات بسيطة قليلة . فأى مثل للتعاون العالمى أكبر من هذا ؟

يجب إذن أن ننزع من ذهن الطفل فكرة القومية والعنصرية لتحل محلها فكرة العالمية ، نريد جيلا يخلو قاموس حياته من كلمة التعصب ، التعصب الأعمى الذى أورد البشرية مورد التهلكة وجعلها تئن من الجروح الدامية التى أصيبت بها لشهوة طاغية ونفس شريرة تستريح لنغمات الألم وطبول الحرب وصلصلة السيوف .

ولن تكون تربيتنا مجدية نافعة مثمرة إذا لم تهدف إلى هذا الهدف النبيل وترمى إلى هذه الغاية السامية ، فيجب أن يعرف الطفل منذ دروسه الأولى فى المدرسة أن البشر إخوة لافرق بين أخ وآخر إلا العمل الصالح والقول الطيب . يجب أن يمارس هذه الحقيقة ويؤمن بصحتها ويدافع عنها ، ويجب أن تمتزج بدمائه حتى تصير جزءاً لايتجزأ منه . وأقول يؤمن ، وفرق بين الإيمان وبين

المعرفة ، فالإيمان أقوى وأثبت وأرسخ فى النفس . بهذا يعيش الطفل فى عالم هادىء بعيد عن تيارات الحرب المدمرة المهلكة ، وينعم بالسلام العالمى ، ويكون العالم كله وحدة إذا اشتكى جزء هرعت إليه بقية الأجزاء تواسيه وتعطف عليه وتمد له يد المعونة فتخفف عنه الشكوى وتزيلها . إذا تألم جزء سهرت بقية الأجزاء حتى يزول الألم ، وإذا حل به الضيق فلا يحمل هماً فإن بقية العالم سينشلونه من هذا الضيق .

وكم هو جميل أن نرى اليوم معسكرات للجوالة تجمع أشخاصاً من جميع أطراف العالم يعيشون فى صعيد واحد ترفرف عليهم ألوية السلام والإخاء والمساواة ، وكم هو جميل أن يجلس السويسرى إلى جانب اليونانى أو الأندونيسى ينسون بعد الشقة ولا يتذكرون إلا أنهم إخوة فى دار واحدة يعملون لأهداف واحدة .

حبذا لو انتشرت أمثال هذه المخيمات ، وحبذا لو وضع ساسة الدول نصب أعينهم فكرة العالمية بدل القومية .

المراجع

١ — عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية .

2. Adler, A. : The Science of Living.
3. « « : The Education of Children.
4. Barker, R G. : Child Behavior and Development.
5. Bridges. : Social and Emotional Development of the Pre-School Child.
6 Brooks. : Child Psychology.
7. Buhler. : The First Year of Life.
8. Gesell. : The Mental Growth of the Pre-School Child.
9. Green, E.H. : Child Development.
10. Isaacs, S. : Social Development in Young Children.
11. Johnson, B. J. : Child Psychology.
12. Miller. : Growing Child.
13. Morgan. : Child Psychology.
14. Pellat. : Boys in Making.
15. Sully. : Studies of Childhood.

obeikandl.com